الدُّر المنثور
عن عدن من الكلام العربي المأثور

أ.د محمد كريم ابراهيم الشمري
عميد كلية الآداب/ جامعة القادسية

الخلاصة:

يوضح هذا البحث اهمية عدن من خلال ذكرها في المصادر المتنوعة منذ العصور القديمة , ووصفها وابرز النعوت والالقاب التي أُطلقت عليها بايراد نصوص من المصادر العربية و الاسلامية في العصور الوسطى,وهي تمثل الكلام العربي المأثورعنها.

مقدمة:

تتميز عدن بأهمية فريدة، من خلال موقعها الجغرافي الاستراتيجي على الساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، في عقدة مواصلات دولية مهمة تربط قارات آسيا وأفريقيا وأوربا، بحكم إطلالتها وقربها من البحر الأحمر والبحر العربي والمحيط الهندي، ومن ثم اتصالها عن طريق الخليج العربي بشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا والشرق الأقصى.

أصبحت عدن محط أطماع كثير من القوى في العالم القديم، متمثلة باليونان والرومان والفرس والأحباش والروم البيزنطيين، وأدت هذه الصراعات إلى إيجاد موطئ قدم لبعض تلك القوى في بلاد اليمن عموماً وفي عدن خصوصاً؛ مما نتج عنه استقرار جاليات أجنبية كثيرة في هذه البلاد وانخراطها في العمل التجاري والسياسي والعسكري.كانت عدن ذات أهمية استراتيجية متميزة عبر مراحل وعصور التاريخ اليمني عموماً، في التاريخ القديم وقبل ظهور الإسلام واستمراراً بعد ظهور الإسلام وقيام الدويلات والكيانات الإسلامية السياسية المتنوعة في بلاد اليمن، وعمل كثير من العرب، فضلاً عن أبناء الجاليات الأجنبية في مدينة عدن وميناءها، في التجارة والوسط التجاري، لما تميز به ميناء عدن من أهمية ونشاط تجاري. وقد أدى هذا الحراك الاقتصادي- الاجتماعي إلى أنشطة أخرى متنوعة، لعل أبرزها ازدهار الأدب وكتابة الشعر، الذي وصفت في بعضه عدن بأوصاف عديدة ومتباينة، كما يتجلى من المنظومات التي تحدرت إلينا مما حبره كثير من الشعراء الذين استقروا فيها أو زاروها ووفدوا على أمرائها وحكامها خلال مراحل التاريخ المختلفة.

كان عصر بني زريع في عدن (٥٣٢-٥٦٩هـ)، ومن بعدهم الأيوبيين (٥٦٩-٦٢٧هـ)، عصر الازدهار والاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي. ولقد برز -خلال هذين العصرين- عديد من الشعراء، نذكر منهم: أبو بكر بن أحمد العندي الأبيني، أبو بكر اليافعي، القاضي يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الحسيني، عبد الله بن علي الصنعاني، عمارة بن علي الحكمي اليمني، سالم بن عمر التغلبي، أحمد بن علي المعافري، أحمد بن محمد الخباز، صفي الدولة أحمد بن علي الحقلي، عبد الله بن مرزوق، أبو الربيع سليمان بن الفضل؛ فضلاً عن شعراء من مصر، أمثال: ابن قلاقس الإسكندري والقاضي الرشيد بن الزبير، ومن الشام مثل: ابن عُنين وأحمد بن منير الطرابلسي وابن الساعاتي، كان لهم اتصال بعدن تبدى جانب منه في بعض أشعارهم.

نستطيع القول أن ذكر عدن، في كثير من أبيات الشعر، كان يمثل دلالة ضمنية على وحدة اليمن شماله وجنوبه ؛ وقد استمرت هذه الظاهرة حتى العصور الحديثة التي اكتسبت فيها بعداً أعمق، مع طول أمد التشطير، الذي زال منذ اكثر من عقد من السنين.

ولعلنا لا نجانب الحقيقة أو نبالغ إذا قلنا أن الشعر هو مرآة العصر وترجمان المشاعر والأحاسيس المعبرة عن إرادة الأمة ووجدانها، وأنه وثيقة ذات أهمية كبيرة من وثائق التاريخ التي تدون وتترجم لحال الأمة في عصر من العصور إيجابا وسلباً؛ لأن الشاعر يعبر عن واقع الحال وطبيعة الظروف التي يعيشها الناس وموقفهم تجاه حكامهم ومدى تعبيرهم عن أحوال الرضا وعدمه.

لموقع عدن أثره الواضح في جعلها ميناءً تجارياً مهماً منذ اقدم العصور، فأصبحت مرفأ مراكب التجار من مختلف الأرجاء، لذا وصفت عدن بأوصاف كثيرة ونعتت بنعوت متنوعة، وحملت كثيراً من

الكنى والألقاب، وقلما حظيت مدينة في العالم بما حظيت به مدينة عدن من الأسماء والأوصاف والنعوت والكنى والألقاب، منذ العصور القديمة ومروراً بالعصور الوسيطة وانتهاءً بالعصور الحديثة. فهي: يودايمون (بلاد العرب السعيدة) والعربية السعيدة (العربية اليوديمونية)، المخزن الروماني، ساحل صنعاء، مرفأ مراكب الصين، مغاص اللؤلؤ، أقدم أسواق العرب، فرضة البحر الأحمر، دهليز الصين، فرضة اليمن، خزانة المغرب، معدن التجارات، مرفأ مراكب الهند، حبس الفراعنة (حبس فرعون)، مقام الجن، ساحل البحر، دار السعادة، مرسى بلاد اليمن، أمنع مدائن اليمن، بلد التجارة، جوف زبيد وكرسي عملها، ركاب الهند من اليمن، ثغر اليمن، جنوبية تهامية (قصبة جنوبي تهامة)، أهم المدن التهامية، الثغر البديع، درة البلدان، عروس البحار، منتهى اليمن,حلقة الوصل بين الشرق والغرب، السوق الكبير للجزيرة العربية، منتهى اليمن ، جبل طارق الشرق، عين اليمن، القطب المغناطيسي ...

١. عدن قديماً :

عدن مدينة عريقة في القدم. فقد ذكرها اليونان والرومان باسم: Adana أو Athana [١] ؛ وأطلق مؤلف بريبلوس اليوناني على عدن تسمية: يودايمون Arabia Eudaemon [٢] ، أي: بلاد العرب السعيدة [٣] . وسماها بطليموس:Arabia Emporion [٤].

وذكر بعض مؤرخي الإفرنج أن مدينة عدن كانت زاهية بتجارتها على عهد الرومان، حتى نافست تجارة القسطنطينية؛ فجاءت أساطيلهم وخَرّبت عدن لمنافستها عاصمتهم. وذكر بعضهم أنها دخلت تحت حكم الرومان، وكانت مركزاً تجارياً مهماً، فسموها يومئذٍ: رومانيوم إمبريوم Romanium Emporiun، أي: المخزن الروماني، أو مخزن الرومان[٥].

كان الرومان أيضاً يعرفون المنطقة ويطلقون عليها اسم: العربية السعيدة[٦]. ونقل العبدلي[٧] عن ديودوروس الصقلي، المتوفى سنة ٨٠ قبل المسيح، قوله: "كأن خزانات الدنيا كلها وثرواتها في بلاد العرب السعيدة اجتمعت في سوق واحد". والمرجّح أنه قصد تجمع خزانات الماء (الصهاريج) كلها وثرواتها في مدينة عدن، التي كانت تعرف قديماً بـ: بلاد العرب السعيدة، وأن تلك الثروات اجتمعت كلها في سوق عدن فقط.

بقيت عدن حتى عصور الإمبراطورية الرومانية مركزاً للمواصلات ، مع الهند من جهة ومع مصر من جهة أخرى. وعلى الرغم من موقعها غير المفضل على ساحل مقفر من الأشجار، فقد ارتفعت إلى حالة من الازدهار ، حتى أن اسم Arabia Felix [العربية السعيدة] يشير أول ما يشير إلى هذه البلدة [٨] . أي أن عدن كانت تسمى: العربية السعيدة.

كانت عدن ـ فيما يروى ـ حبساً (سجناً) لأصحاب الجرائم، اتخذها شداد بن عاد سجناً لمن غضب عليه، واستمر الحال إلى آخر دولة الفراعنة ، الذين كانوا يحكمون مصر، وبعد زوال دولتهم تعرضت عدن للخراب [٩] .

خربت عدن بانقطاع دولة الفراعنة وزوالها، وسكنها بعدهم قوم صيادون استمروا زماناً طويلاً، يترزقون من فضل الله في القوت والمعاش، إلى أن جاء قوم من أهل جزر القُمُر بمراكب وجمع كبير، فاخرجوا الصيادين بالقوة، وسكنوا على ذروة الجبل الأحمر وحقات وجبل المنظر، وآثارهم وبناؤهم باق، بالحجر والجص، مازال باقياً في معظم الأودية والجبال، حتى عصر ابن المجاور البغدادي النيسابوري في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، الذي استشهد بشعر مؤثر يتضمن الحنين والتغني بهذه الديار؛ تعبيراً عن حال ساكنيها ومحبيها، وما تجيش به نفوسهم من المشاعر والذكريات الحزينة عند فراقهم لها، لما تركته في قلوبهم ونفوسهم من آلام وذكريات.

قال الشاعر: (رجز)

لي أدمع هــو ا طــــل مُـــذ خلـــت المنازلْ

وسار حـــادي عيسهـــم فهـــاجـت البـــلابـلْ

وقفت فـــي ربـــوعهـم

هاذٍ بهم وسائلْ

يا دارُ هل من خبرٍ

رُدّ جوابي عاجلْ

أجابني من الربو

ع صائح وقائلْ

إبكِ دماً يا غافلاً

قد سارت القوافلْ

لي فيهم فتانة

رشيقة الشمائلْ

في خدها وقدها

ورد وغصن ذابلْ [١٠]

كانت عدن مدينة مهمة في الماضي، عندما كان السفر –من الهند إلى مصر- أمراً صعب التحقيق، إذ كانت وقتذاك تتلقى السلع من كلا البلدين[١١].

تميزت عدن بأهميتها الستراتيجية والتجارية، مما جعلها هدفاً للطامعين على مر العصور، وذلك نظراً لموقعها الممتاز، الذي أثار اهتمام وانتباه حكام اليمن، مثل: بني زياد، بني معن، الصليحيين، الزريعيين والأيوبيين والرسوليين والطاهريين، فوجهوا اهتمامهم الكبير بمينائها ؛ لأنها كانت من أمنع المناطق الجنوبية، وبحكم موقعها على ساحل البحر جنوب غربي الجزيرة العربية، وشهرتها التجارية لوقوعها على مقربة من المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، كانت السفن المحملة بمنتجات الشرق والغرب ترسو فيها، لذلك وصفت عدن بأنها: حلقة الاتصال بين الشرق والغرب [١٢] .

ظل اسم عدن - منذ القدم- وحتى يومنا هذا، يتردد في منثور الكلام العربي، معبراً عن ذكريات ومشاهدات وملاحظات سجلتها أقلام المؤرخين والجغرافيين والرحالة والزوار والتجار، رصدتها عيونهم الحادة، ودونوها في متون مؤلفاتهم وآثارهم معبرين عن اعجابهم واعتزازهم وشغفهم بعدن، وسنورد أقوالهم ومذكراتهم من منثور القول المتمحور حول عدن خلال العصور الإسلامية- الوسيطة، بنصوص متسلسلة وفق وفيات هؤلاء الرواد، كما هي دون تغيير أو تبديل؛ لتبقى نصوصاً شاهدة على عظمة عدن ومكانتها وصفاتها بمحاسنها ومساوئها.

٢. عدن في نصوص مؤلفات العصور الإسلامية الوسطى :

عدن اسم محفور في ذاكرة الزمن، تردد في منثور الكلام العربي المأثور، المعبر عن حب واعجاب وولع وحنين وذكريات ومشاهدات، كلها مسجلة في العين واللسان والقلب والنفس عن عدن، عدن الخالدة منذ العصور القديمة وحتى عصرنا الراهن. فآثرنا اختيار نصوص من المؤلفات العربية – الإسلامية، تعكس لنا أهمية عدن ومكانتها ودورها في التاريخ.

وسنورد هذه النصوص وفق تسلسل مؤلفيها ووفياتهم:

(١)

"وهي ساحل صنعاء، وبها مرفأ مراكب الصين، وسلاهط والمندب، وغلافقة، والحردة ، والشرجة وهي شرجة القريص ، وعثر ، والحَسَبة والسرين وجُدة". [١٣]

***

(٢)

"الإقليم الأول: يبتدئ من المشرق من أقاصي بلاد الصين، ويمر على الصين، ثم يمر على سواحل البحر في جنوب بلاد السند، ثم يمر في البحر على جزيرة الكول ويقطع البحر إلى جزيرة العرب وأرض اليمن، فيكون فيه من المدائن المعروفة: مدينة ظفار، وعُمان، وحضرموت، وعدن، وصنعاء، وما وراء تبالة، وجرش ومهرة، وسبأ، ثم يقطع الإقليم بحر قلزم، فيمر على بلاد الحبشة ...". [١٤]

***

(٣)

"عدن مغاص اللؤلؤ". [١٥]

***

(٤)

"وعدن مدينة صغيرة، وإنما شهرتها لأنها فرضة على البحر، ينزلها السائرون في البحر، وبها معادن اللؤلؤ، وباليمن مدن كثيرة هي أكبر منها وليست بمشهورة". [١٦]

***

(٥)

"عدن جنوبية تهامية، وهي أقدم أسواق العرب، وهو ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق، فقطع في الجبل باب بزبر الحديد، وصار لها طريقاً إلى البر ودرباً[*] وموردها ماء يقال له الحيق أحساء في رمل في جانب فلاة إرم ...". [١٧]

وعن عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها، قال الهمداني [١٨]: " منها باب عدن، وهو شصر (شق) مقطوع في جبل كان محيطاً بموضع عدن من الساحل، فلم يكن لها طريق إلى البر إلا للرجل لمن ركب ظهر الجبل، فقطع في الجبل باب مبلغ عرض الجبل، حتى سلكه الدواب والجِمال والمحامل والمحفات".

***

(٦)

"وعدن مدينة صغيرة وشهرتها لأنها فرضة على البحر، ينزلها السائرون في البحر، وباليمن مدن أكبر منها ليست كشهرتها". [١٩]

***

(٧)

"وعدن بلد جليل، عامر آهل حصين خفيف، دهليز الصين، وفرضة اليمن[٢٠]، وخزانة المغرب، ومعدن التجارات، مبارك على من دخله، مثرٍ لمن سكنه ، مساجد حسان ومعايش واسعة وأخلاق طاهرة ونِعم ظاهرة، وبارك النبي [صلى الله عليه وآله وسلم] في سوق منى وعدن، وهو في شبه صيرة الغنم، وقد أحاط به جبل بما يدور إلى البحر، ودار خلف الجبل لسان من البحر، فلا يدخل إليه إلا أن يُخاض ذلك اللسان، فيصل إلى الجبل، وقد شُقَ فيه طريق في الصخر عجيب، وجعل عليه باب حديد، ومدوا من نحو البحر حائطاً من الجبل إلى الجبل، فيه خمسة أبواب ،والجامع ناءٍ عن الأسواق، ولهم آبار مالحة وحياض عدة، ويقال انها كانت في القديم حبس شداد بن عاد، إلا أنها يابسة عابسة، لا زرع ولا ضرع، ولا شجر ولا ثمر، ولا ماء ولا كلأ ، كثيرة الحريق والوكف ، جامع شعث وهرج وحش، وحمّامات ردية، يحمل إليهم الماء من مرحلة". [٢١]

وصف المقدسي [٢٢]عدن وسكانها بقوله : " واكثر اهل عدن وجدة فُرس الا ان اللغة عربية ، . . واهل عدن يقولون لرجليه رجلينه وليديه يدينه وقِس عليه ويجعلون الجيم كافاً فيقولون لرجب ركب ولرجل ركل " . كما وصف المقدسي عدن في رحلته إليها، إذ قال: " ولما ركبتُ بحر اليمن اتفق اجتماعي مع أبي علي الحافظ المروزي في الجلبة [السفينة] ، فلما تأكدتْ المعرفة بيننا، قال لي: قد شغلتَ والله قلبي، قلتُ: بماذا، قال: أراك رجلاً على طريق حَسَنة تحب الخير وأهله، وترغب في جمع العلوم، وقد قصدتَ بلاداً قد غَرّت كثيراً من الناس، وصدتهم عن طريق الورع والقناعة، وأخشى إذا أنتَ دخلتَ عدن فسمعتَ أن رجلاً ذهبَ بألف درهم فرجعَ بألف دينار، وآخر دخلَ بمائة، فرجع بخمسمائة، وآخر بكندر فرجع بمثله كافوراً، طَلَبَتْ نفسُكَ التكاثُر، قلتُ: أرجو أن يعصم الله، فلما دخلتُها وسمعتُ أكثرَ مما قال، غَرّني والله ما غَرّ القوم... " .

***

(٨)

"ومن سوق عدن تُشترى اللطائم * وأنواع الطِيب ، ولم يكن في الأرض أكثر طِيباً، ولا أحذق صُناعاً للطيب من [أهل] عدن". [٢٣]

***

(٩)

"وكان طِيب الخلق جميعاً بها يُعبأ، ولم يكن أحد يُحسن صنعهُ من غير العرب، حتى أن تجار البحر لترجع بالطِيب المعمول، تفخر به في السند- والهند- وترتحل به تجار البر إلى فارس والروم، وأن بالناس على ذلك اليوم * ما يُحِسن اليوم * عمله إلا أهل الإسلام بعدن" .[٢٤]

***

(١٠)

"وهي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند [البحر العربي] من ناحية اليمن، ردئة لا ماء بها ولا مرعى، وشربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة نحو اليوم [٢٥]، وهو مع ذلك رديء، إلا أن هذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند، والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك، فإنها بلد تجارة" . [٢٦]

***

(١١)

"وعدن حبس الفراعنة، ورجعت من حبوس الفاطميين... ويقال: أول من حبس بها رجل يقال له عدن، فسميت به..." .

"وتسمى عند الفرس أخرسكين وعند الهنود: هتام، وعند الظرفاء: سنداس ... وتسمى فُرضة اليمن [٢٧]، وتسمى عند السوقة: دار السعادة، بدار بناه سيف الإسلام طغتكين مقابل الفرضة" .[٢٨]

***

(١٢)

وصف ابن الأثير [٢٩] دخول الأيوبيين عدن وسيطرتهم عليها سنة ٥٦٩ هـ ، بقوله : " . . . وساروا إلى عدن ، وهي على البحر ، ولها مرسى عظيم ، وهي فرضة الهند والزنج والحبشة ، وعُمان وكرمان ، وكيش ، وفارس ، وغير ذلك ، وهي من جهة البر من أمنع البلاد وأحصنها ، وصاحبها إنسان اسمه ياسر ، فلو أقام بها ولم يخرج عنها لعادوا خائبين ، وإنما حمله جهله وانقضاء مدته على الخروج إليهم ومباشرة قتالهم ، فسار إليهم وقاتلهم ، فانهزم ياسر ومن معه ، وسبقهم بعض عسكر شمس الدولة [توران شاه] ، فدخلوا البلد قبل أهله ، فملكوه ، واخذوا صاحبه ياسراً أسيراً ... " .

***

(١٣)

"مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن...لا ماء بها ولا مرعى ، شربهم من عين بينها وبين عدن مسيرة يوم ، وكان عدن فضاء في وسط جبل على ساحل البحر ، والفضاء يحيط به الجبل من جميع الجوانب ، فقطع لها باب بالحديد في الجبل فصار طريقاً إلى البر .

وانها مرفأ مراكب الهند وبلد التجارة ومرابح الهند، فلهذا يجتمع إليها الناس ويحمل إليها متاع الهند والسند والصين والحبشة وفارس والعراق، وقال الاصطخري: بها مغاص[٣٠] اللؤلؤ.

بها جبل النار وهو جبل أحمر اللون جداً في وسط البحر؛ قالوا: هو الجبل الذي تخرج منه النار التي هي من أشراط الساعة، وسكان عدن يزعمون أنهم من نسل هارون، عليه السلام، وهم المربّون .

وبها البئر المعطلة التي ذكرها الله تعالى في القرآن... ويقال: إن سليمان بن داود، عليه السلام، حبس المردة مصَفدين في هذه البئر وهي محبسهم" .[٣١]

***

(١٤)

"... ثم سافرتُ إلى مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن، على ساحل البحر الأعظم. والجبال تحف بها، ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد؛ وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر. والماء على بُعد منها، فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينهُ حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر، وهي مرسى أهل الهند. تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط ومندراينه والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وغيرها، وتجار الهند ساكنون بها، وتجار مصر أيضاً.

وأهل عدن ما بين تجار وحمّالين وصيادين للسمك. وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، ولهم في ذلك تفاخر ومباهاة " .[٣٢]

***

(١٥)

"وعدن هذه من أمنع مدائن اليمن، وهي على ضفة البحر الهندي [العربي] ، ومازالت بلد تجارة من عهد التبابعة، وأكثر بنائهم بالأخصاص، ولذلك يطرقها تجار الحرير كثيراً ". [٣٣]

عدن: من ممالك اليمن في جوف زبيد، وهي كرسي عملها، وهي على ضفة البحر الهندي [العربي] ، وكانت بلد تجارة منذ أيام التبابعة، وبُعدها عن خط الاستواء ثلاث عشرة درجة، ولا تنبت زرعاً ولا شجراً، ومعاشهم السمك، وهي ركاب الهند من اليمن .[٣٤]

***

(١٦)

"وهي على ساحل البحر ذات حط وإقلاع... (*) وهي أعظم المراسي في اليمن، وتكاد تكون ثالثة تعز وزبيد في الذكر؛ وبها قلعة حصينة مبنية، وهي خزانة مال ملوك اليمن، إلا أنه ليس بها زرع ولا ضرع؛ وهي فرضة اليمن، ومحط رحال التجار، لم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة، ويمتار أهل كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع".[٣٥]

قال صلاح الدين بن الحكيم[٣٦]: "ولا يخلو أسبوع من عدة سفن وتجار واردين عليها، وبضائع شتى ومتاجر منوعة، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة؛ ولحط المراكب عليها وإقلاعها مواسم مشهورة، فإذا أراد ناخوذة [مالك سفينة البحر أو: وكيل] السفر بمركب إلى جهة من الجهات، أقام فيها عَلَماً برَنْك [لون وصبغة] خاص به، فيعلم التجار بسفره، ويتسامع الناس فيبقى كذلك أياماً، ويقع الاهتمام بالرحيل؛ وتسارع التجار في نقل أمتعتهم، وحولهم العبيد بالقماش السري والأسلحة النافعة، وتُنصب على شاطئ البحر الأسواق، ويخرج أهل عدن للتفرج هناك".[٣٧]

***

(١٧)

"وأما ثغر عدن فقد قال بعض أهله من العلماء والفضلاء بأنه: قديم الهجرة، أزلي حصين، لم تزل البركة فيه ظاهرة، وساكنه مرحوم ملاطف، والغالب على سكنته الخشوع وسلامة الصدر، ولم يزالوا مثابين مأجورين؛ لاتكالهم على الله بمكثهم في جزيرة لا نبات بها ولا كلأ، وكم يزورها من العلماء الصالحين والعُبّاد والناسكين والأبدال والأعوان والأقطاب، أمم يُجَلون عن الحصر على تداول الأزمان واختلاف الأحيان".[٣٨]

***

(١٨)

"إعلم أن عدن بلدة قديمة، يقال أن قابيل لما قتل أخاه هابيل، خاف من أبيه آدم، ففر من أرض الهند إلى عدن، وأقام هو وأهله بجبل صيرة، وأنه لما استوحش بمفارقة الوطن وغيره، تَبدّى له إبليس ومعه شيء من آلات اللهو كالمزامير ونحوها، فكان يُسَليه باستعمالها، فهو أول من استعمل ذلك على ما قيل". [٣٩]

وبهذا النص المنقول عن كتاب تاريخ ثغر عدن لأبي مخرمة، نصل إلى مسك الختام في هذه الإلمامة السريعة عن وصف عدن ومكانتها ومنزلتها، في منثور الكلام العربي، حول هذه المدينة العربية العريقة، من خلال إيراد النصوص العربية المعبرة عن مشاعر ومشاهدات وملاحظات المؤلفين العرب والمسلمين خلال العصور الإسلامية. فقد ظلت عدن منذ أقدم العصور قطباً مغناطيسياً، يجذب الناس إليه من شتى الأصقاع ومن مختلف الجنسيات؛ لأنها همزة الوصل بين الشرق والغرب.

الهوامش والمصادر والتعليقات :

١) نقولا زيادة : دليل البحر الارثري وتجارة الجزيرة العربية البحرية ، مجلة اليمن ، العدد : ١٩ ، مركز البحوث والدراسات اليمنية بجامعة عدن ، (عدن ، مايو ٢٠٠٤م) ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ، كحالة، عمر رضا: جغرافية شبه جزيرة العرب، الناشر: فؤاد هاشم الكتبي، المطبعة الهاشمية، (دمشق ، ١٣٦٤هـ/١٩٤٤م)، ص٣٦٤. العبيدي، إبراهيم خلف: الحركة الوطنية في الجنوب اليمني المحتل، (أطروحة دكتوراه مقدمة إلى قسم التاريخ- كلية الآداب/جامعة بغداد)، ١٩٧٩م، ص١٦.

Lofgren , Oscar : Aden,The Encyclopaedia of lslam , Vol .1 , New Edition , (Leiden , E,J,Brile,London Luzac,1960),P.180.(E,i).

٢) راجع: الطواف في البحر الاحمر ودور اليمن البحري,ترجمة وتعليق : حسين علي الحبيشي ونجيب عبد الرحمن شميري,دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ,(عدن ,٢٠٠٤م), ص٢٧ , ٥٨. د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٧، الطبعة الأولى، (بيروت،١٩٧١م)، ص٢٧٣. حوراني، جورج فضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة: د. السيد يعقوب بكر، منشورات مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٥٨م)، ص٦٣-٦٤، ٨٢، ٨٨، ٩٤، ١٥٦.

٣) حوراني: العرب والملاحة، ص ٨٢.

ورد اسم اليمن في النصوص السبأية القديمة "يمنات" و "يمنت" ، بما معناه : الخير البركة ، اي ما ترجمه الرومان الى ((اريبيا فيلكس)) ، اي العربية الخيرة او العربية السعيدة ، دلالة على غنى تلك البلاد ومدى حضارتها . ترسيسي ، د. عدنان . اليمن وحضارة العرب مع دراسة جغرافية كاملة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت ، د . ت) ، ص ١٤ .

٤) جواد علي: المفصل، ٢٧٤/٧. حوراني: العرب والملاحة، ص ٨٨ . شهاب ، حسن صالح: عدن قُرضة اليمن، منشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني/ صنعاء، الطبعة الأولى، (صنعاء، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م) ، ص ٥٩.

٥) العبدلي، الأمير أحمد فضل بن علي محسن: هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، دار العودة، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص١٧. مجهول المؤلف: مستعمرة عدن وجاراتها، تقرير مطبوع على الاستنسل، (مجهول مكان الطبع ؟، يناير ١٩٤٩م) ، ص٩٤، وتسمى : Emporium Romanium، راجع: E,i.vol,1,p.180.

٦) الحبشي، د. محمد عمر: اليمن الجنوبي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، ترجمة: د. الياس فرح ود. خليل أحمد خليل، منشورات دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٩٦٨م)، ص٥.

٧) هدية الزمن، ص١٨.

٨) T.Mommsen: History of The Later Roman Empire.، نقلاً عن: الظفاري، د. جعفر عبده صالح : ثغر اليمن في الأدب، مجلة اليمن، العدد (١٢)، (عدن، رمضان ١٤٢١هـ/ نوفمبر ٢٠٠٠م)،ص ١٥٠.

وذكر المؤرخ بلينوس Pliny الروماني بالقرن الاول للميلاد شرحا يتعلق بهذه التسمية (العربية السعيدة) ، قال المؤرخ : "كسبت بلاد العرب نعت (سعيدة) لانها فياضة بحاصلات يستعذبها اهل الترف ويباهون في اقتنائها جهازا لموتاهم " – ويقصد بذلك اللبان- الى ان يقول : "هكذا انصرف المترفون الى حرق هذه الحاصلات امام اجساد اعزائهم الراحلين الى دار الفناء بعد ان كان استعمالها قبلا ينحصر في مراسم العبادة لآلهتهم . . . وتبتز الهند وقبائل سارا وعرب الجزيرة من امبراطوريتنا مبلغ مليون (ستريسه) – النقد الروماني القديم – في كل حول هذا على اقل حساب ، وتلك ثروة طائلة نبذرها على احوال مترفينا ونسائنا " . انتهت ملاحظة بلينوس . راجع : ترسيسي . اليمن وحضارة العرب ص ١٤ – ١٦ (خارطة مدن اليمن الطبيعية ص ١٥) .

٩) ابن المجاور البغدادي النيسابوري، ... بن محمد بن مسعود بن علي بن أحمد، (توفي بعد ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة: تاريخ المستبصر، القسم الأول، باعتناء: أوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، الطبعة الثانية، (بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م)، ص ١٠٨-١٠٩.

١٠) المصدر نفسه، ص ١١٦-١١٧.

١١) نقولا زيادة : دليل البحر الارثري ص ٢٠٣ – ٢٠٤ ،(قارن:الطواف في البحر الاحمرص٢٧), حوراني: العرب والملاحة، ص ٦٤، ١٥٦.

١٢) إبراهيم، د.محمد كريم: عدن/دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، منشورات مركز دراسات الخليج العربي/جامعة البصرة، الطبعة الأولى، (البصرة، ١٩٨٥م)، ص٥٢. راجع : الطبعة الثانية ، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، (عدن ، ٢٠٠٤م) ، ص ٦٠ .

١٣) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن واضح الكاتب، (ت:٢٨٤هـ/٨٩٧م). كتاب البلدان ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ص٨٠-٨١.

والشرجة والحردة وعطنة مدن على الساحل بهن خزائن الذرة تحمل الى عدن . المقدسي احسن التقاسيم ص ٨٦ (راجع عن المقدسي : هامش رقم (٢١) من بحثنا هذا) .

١٤) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، (ت:٢٩٠هـ/٩٠٢ م). الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، د.ت)، ص٩٤. والعنوان: ذكر الأقاليم السبعة وأسماء مدنها المشهورة .

١٥) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، (ت: ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢م). نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، (مطبوع بعد كتاب: المسالك والممالك لابن خرداذبة، في مجلد واحد متسلسل الصفحات)، باعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٨٩م)، ص١٩٢.

١٦) الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، (ت: ٣٤٦هـ /٩٥٧م). المسالك والممالك، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال، (القاهرة، ١٣٨١هـ/١٩٦١م)، ص ٢٦.

هنالك صنف من المدن التي توافرت فيها المستلزمات الاقتصادية، نظراً إلى وظيفتها المتمثلة بكونها مدينة مرفأ أو فُرضة، برزت فيها عدة متطلبات تجارية قائمة على هذه الوظيفة التي تخدمها، ولعل للموقع الجغرافي أثره الكبير في إضفاء صفة المرفأ والفرضة على مدن هذا الصنف، ومنها مدينة عدن، فهي مدينة صغيرة قياساً بالمدن الواقعة في المنطقة، لكنها اكتسبت شهرة واسعة لما فيها من متطلبات مدينة المرفأ، فكانت مشهورة في عالم التجارة لموقعها، فهي فرضة البحر الأحمر، ومرفأ المراكب الهندية، ومحطة ينزلها السائرون في البحر. ناجي، د. عبد الجبار: دراسات في المدن العربية الإسلامية، منشورات جامعة البصرة، الطبعة الأولى، (البصرة، ١٩٨٦م)، ص١١٣. إبراهيم، د. محمد كريم: التطور العمراني لمدينة عدن خلال العصر الأيوبي، مجلة سبأ، العدد (٥)، (عدن، ١٩٨٩م)، ص٩٣.

*هو ما كان يسمى: باب البر وباب السلب، الأكوع (محقق): صفة جزيرة العرب، للهمداني، ص٩٤، (هامش).

١٧) الهمداني، لسان اليمن أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب، (توفي بعد ٣٦٠ هـ /٩٧٠م). صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني/ صنعاء، ودار الآداب/ بيروت، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)، ص ٩٤.

ونقل الحموي قول الهمداني هذا. راجع: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، ج ٤، منشورات دار صادر، الطبعة الثانية/ لونين، (بيروت، ١٩٩٥م)، ص ٨٩.

١٨) صفة جزيرة العرب، ص ٣٠٦. وقد أعاد الهمداني ذكر أسواق العرب القديمة التي سبق أن ذكرها، ومنها: عدن ومكة والجند . المصدر نفسه، ص ٢٩٦.

١٩) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، (ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م). صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، ١٩٧٩)، ص ٤٤.

٢٠) للأستاذ حسن صالح شهاب كتاب بعنوان:عدن فُرضة اليمن، في (٢٥٣) صفحة. راجع هامش رقم(٤) من بحثنا .

٢١) المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت: ٣٨١هـ/٩٩١م). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء: دي غويه، الطبعة الثانية، مطبعة بريل، (ليدن، ١٩٠٦م)، ص ٨٥.

٢٢) المصدر نفسه، ص٩٦ ، ٩٧-٩٨.

* اللطائم: نوافج المسك، أي سرره، الواحدة: لطيمة . الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي ٨٤/١ هامش.

٢٣) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد، (ت: ٤٠٠هـ/١٠٠٩م): الإمتاع والمؤانسة، ج١، صححه وضبطه: أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، د.ت)، ص٨٤.

* اليوم: يقصد بها المؤلف المرزوقي : عصره (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

٢٤) المرزوقي الأصفهاني، الشيخ أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، (ت: ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م): الأزمنة والأمكنة، ج٢، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، (حيدر آباد الدكن – الهند ، ١٣٣٢هـ)، ص١٦٤. راجع أيضاً عن نص المرزوقي أعلاه: الأفغاني، سعيد: أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، المطبعة الهاشمية، (دمشق ،١٣٥٦هـ/١٩٣٧م)، ص٢٣٣؛ ابراهيم، د. محمد كريم: أسواق اليمن التجارية حتى ظهور الدعوة الإسلامية، مجلة (اليمن)، العدد (١٧)، (عدن، مايو ٢٠٠٣م)، ص ٣٤. قارن البحث المنشور للمؤلف نفسه في كتاب : زهور السوسن في تاريخ عدن – اليمن ، منشورات دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، الطبعة الاولى ، (عدن ، ٢٠٠٤م) ، ص ٢٢٠ .

٢٥) راجع بهذا المعنى: الأفغاني: أسواق العرب، ص٢٣٢.

٢٦) الحموي، (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، ج٨٩/٤، ونقل الحموي في الصفحة نفسها نص قول الهمداني عن عدن: " عدن جنوبية تهامية ... في جانب فلاة إرم " . راجع إحالة رقم (١٧) وهامشها، فقرة رقم (٥).

٢٧) سبق أن سماها المقدسي: فرضة اليمن، أحسن التقاسيم، ص٨٥، (راجع فقرة رقم (٧) من بحثنا، إحالتي رقم: ٢٠ ، ٢١ وهوامشهما).

٢٨) ابن المجاور البغدادي النيسابوري : صفة بلاد اليمن ... (تاريخ المستبصر)، قسم (١)، ص ١١٠. راجع هامش رقم (٩) من بحثنا هذا .

٢٩) عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ، (ت : ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢م) . الكامل في التاريخ ، المجلد (١١) ، دار صادر ، (بيروت ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) ، ص ٣٩٧ .

٣٠) ذكر قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ما نصه : " عدن مغاص اللؤلؤ " . الخراج وصنعة الكتابة، ص١٩٢. (راجع فقرة رقم (٣). إحالة رقم (١٥) وهامشها).

وذكر الاصطخري عن عدن ما نصه: "وبها معادن اللؤلؤ". المسالك والممالك، ص٢٦. (راجع فقرة رقم (٤)، إحالة رقم (١٦) وهامشها من بحثنا).

٣١) القزويني، زكريا بن محمد بن محمود، (ت:٦٨٢هـ/١٢٨٣م). آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص ١٠١-١٠٢.

٣٢) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): رحلة ابن بطوطة، المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج١، قدم له وحققه: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، راجعه: الأستاذ مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، (بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص ٢٦٠.

٣٣) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، (ت : ٨٠٨هـ/١٤٠٦م). تاريخ العلامة ابن خلدون، المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المجلد الرابع، القسم الثاني، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، (بيروت، ١٩٦٨م)، ص ٤٦٦.

٣٤) المصدر نفسه، ص ٤٧٣. راجع أيضاً : إبراهيم: عدن ، ص٥١ ، ٧٣. قارن : الطبعة الثانية ، ص ٥٩ .
* إلى هنا الكلام منقول عن الأزهري، وبعده قال القلقشندي: قال في "مسالك الأبصار". صبح الأعشى ج٥/٩.

٣٥) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م). صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج٥، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: نبيل خالد الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م)، ص٩. (نقلاً عن: مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري).

٣٦) ذكره القلقشندي بهذا الاسم، وسماه: الحكيم صلاح الدين محمد بن البرهان، والحكيم صلاح الدين. صبح الأعشى، ج٥/٥ ، وسماه: صلاح الدين بن البرهان. المصدر نفسه، ج٥/١٠.

وهو: الحكيم صلاح الدين أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن البرهان، المتوفى سنة ٧٤٣هـ/١٣٤٢م، نقل أخباراً كثيرة عن طبيعة اليمن وأسواقها ومتاجرها. راجع: سيد، أيمن فؤاد: مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، (القاهرة، ١٩٧٤م)، ص١٤٥-١٤٦.

٣٧) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥/٩ ، راجع أيضاً: العبدلي: هدية الزمن، ص٢٠. كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص٣٦٥. لقمان، حمزة علي إبراهيم: تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، (القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م)، ص٣٠٦. إبراهيم: عدن، ص٣٤١،٢٧٩. قارن : الطبعة الثانية ، ص ٢٥٤ .

٣٨) البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن، (ت: ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م): طبقات صلحاء اليمن، المعروف بـ: تاريخ البريهي، تحقيق: عبد الله محمد الحبشي، منشورات مركز البحوث والدراسات اليمني، (صنعاء، د.ت)، ص٣٢٦.

٣٩) أبو مخرمة، أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد، (ت: ٩٤٧هـ/١٥٤٠م). تاريخ ثغر عدن، ج ا، باعتناء: أوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م)، ص٧-٨.